الجوائز الأدبية ومغزاها

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

ستصبح الجوائز الأدبية يوماً ما ، وإن بعد ، موضوع رسالة أحد طلاب العلم يتقدم بها إلى إحدى الجامعات لينال أجازة « الدكتوراه » فى الآداب . ولا ريب فى أن مثل هذا الموضوع سيكون فى نظر أدباء ذياك الجيل المقبل طريفاً غاية الطرافة ، كما يجد أدباء هذا العصر متعة وأى متعة فى حديث التقدير الأدبى الذى لقيه أدباء القرن التاسع عشر فى أوربا وأمريكا . فقد كان تقدير الأدباء لذلك الجيل يجرى على منوال خاص . ففى انكلترا مثلاً منح الشاعر « لوريت » Laureate الذى نشأ راعياً مرعى خصيباً . ومنح الكثير من الأدباء ألقابا بمناسبة إحياء أيام مولدهم أو نحوها من المناسبات . أما تقدير الأدباء فى أمريكا فكان يجرى على منوال آخر أساسه الانتفاع الضمنى بالناحية المادية لظهر الهبة أو المكافأة ، إذ يذكر عن « ناثانيل هوثورن » Nathaniel Hawthorne أنه عين قنصلاً لأمريكا فى ليفربول لمجرد الاعتراف بقدره الأدبى . وكذلك فلد « هرمن ملفيل » Hermen Melville مثل هذه الوظيفة ليتمكن من التغلب على ضائقته المالية . وتابعت أمريكا السير فى ذلك حتى عام ١٩٠٤ حين عين الرئيس روزفلت « ادوين أرلنجتون روبنسن » Edwin Arlington Robinson فى إدارة المكوس تشجيعاً له على النهوض بالشعر . جرى مثل ذلك على البعض فى حين أن فطاحل الأدباء للعصر الفيكتورى مثلا لم يصيبوا شيئاً من هذه الهبات ، إلا أنهم استعاضوا عن ذلك بادراك الحقيقة الراهنة التى كانت تتجلى لهم يوما بعد يوم فى زيادة طبقات القراء ، فأوحت لهم ثقتهم بأنفسهم ألا يضعوا أمانيهم فى غير المستقبل . وسرعان ما اطمأنت نفوسهم عندما صدر عام ١٨٨٠ قرار يجعل حق الطبع والنشر ملكا للمؤلف . وقضى هذا القرار على قرصنة الناشرين وسطو المغتصبين على أعمال الأدباء . وبطبيعة الحال كان تكرار نشر عمل أدبى يدر على صاحبه رزقا جديداً . ولهذا لم يأبهوا للهبات والجوائز

وأول الجوائز الأدبية التى ظهرت خلال القرن العشرين ولم تكن لها سمة التجارة هى « جوائز نوبل » Nobl فى بلاد السويد و « جائزة جونكور » Goncourt و « جائزة فينا » Femina فى فرنسا ، والجائزة « الهوثورنية » Hawthorne فى انكلترا ، و « جائزة بولتزر » Pulitzer فى أمريكا . وظهرت بعد ذلك جوائز أخرى فى هذه البلاد وغيرها . وبهما تكن هذه الجوائز صادقة فى التعبير عن عصر بذاته ، أو عن أثرة الروح القومية ، أو هى مسألة قاصرة على المؤلف دون غيره ، فهى على أى حال جوائز اعتراف بالتفوق الأدبى

وليس من شك فى أن جوائز نوبل خلدت ذكر الفرد برنهارد نوبل Alfred Bernhard Nobel ، ذلك المخترع السويدى الذى تمكن من اكتشاف الديناميت فيما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٦ . وكأنما أراد أن يوازن بين خطر ما اخترعه بعمل آخر فأثبت فى وصيته عدداً من الهبات ظنها مؤدية إلى القضاء على استعمال الديناميت . ولعل ذكرى السنين العجاف من حياته ، التى أضناه فيها الكفاح بعد ما زار الولايات المتحدة عام ١٨٥٠ ليعمل فى خدمة المخترع الاسكندنافى الأسبق جون إريكسون John Ericsson ، أوحت إليه بوجوب تخصيص إعانات للعلماء كى يتيسر لهم متابعة أبحاثهم ووجوب مساعدتهم حين الاخفاق . فلما واتاه الحظ حقق ذلك فى وصيته إذ أثبت فيها قبل وفاته أن فوائد ما يتركه من رأس مال يجب أن تقسم سنويا إلى خمس جوائز ، تبقى إحداها وقفاً على علم الطبيعة ، وأخرى وقفاً على الكيمياء ، وواحدة للطب أو علم التحليل النفسانى ، ورابعة تخص مشكلة السلام ، وخامسة ترصد للأدب . وتمنح جائزة الأدب سنويا كما هو نص الوصية ، « إلى الشخص الذى أنتج فى عالم الأدب أحسن كتاب حوى نزعات مثالية » . ووكل أمر اختيار ذلك إلى المجمع السويدى . والحق أن هذه الجائزة التى تتراوح بين اثنى عشر ألفاً وخمسة عشر ألف جنيه تهيئ لأى أديب حياة راضية مرضية

أما جائزة جونكور فلا زالت على عهدها منذ نشأتها فى سنة ١٩٠٣ أشهى ثمرة يتهافت عليها الأدباء فى فرنسا . وهذه تمنح دون استثناء للأدباء الناشئين . وهى أرفع منزلة من مقعد ثابت فى المجمع الفرنسى . وتعد جائزة جونكور الدرجة الأولى من سلم

العلياء الأدبى . وهنالك جائزة فرنسية أخرى لها صداها فى خارج البلاد الفرنسية هى جائزة فينا . وكانت « مجلة فينا » Femina قد تآزرت عام ١٩٠٤ مع « مجلة لائى أوروز » La Vie Heureuse على منح جائزة قدرها خمسة آلاف فرنك لأحسن رواية توضع باللغة الفرنسية فى نظر لجنة الكاتبات الفرنسيات . وأنشأت هذه اللجنة النسائية عام ١٩١٩ جائزة شبيهة بتلك وقفتها على المؤلفين الانكليز لما بين البلدين من صداقة . ثم أنشأن عام ١٩٣٢ « جائزة فينا الأمريكية » لتكون قاصرة على الأدباء الأمريكيين

وأهم الجوائز الأدبية التى تمنح فى بريطانيا العظمى هى أولاً : الجوائز التذكارية لجيمس تيب بلاك James Tait Black Memorial Prizes التى تمنح فى ربيع كل عام من أجل تاريخ حياة شخص عظيم أو من أجل رواية طابعها بريطانى . وعلى أستاذ آداب اللغة الانكليزية فى جامعة أدنبرج أن يختار أحسن الأعمال . وثانية الجوائز « جائزة هوثرن » Hawthornded Prize التى تمنح لأحسن قصة يضعها كاتب انكليزى دون الحادية والأربعين من عمره . أما جوائز بولتزر Pulitzer Prizes فقاصرة على الكتاب الأمريكيين من ذوى المواهب الفذة ، على أن تظهر هذه المواهب فى أعمالهم الأدبية

* * *

ولا ريب فى أن جائزة نوبل اليوم هى أعظم الجوائز فى عالم الأدب إطلاقاً ، إذ هى لا تؤثر قومية على أخرى . ثم إنه لا يحكم بها من أجل كتاب مفرد ، بل يجرى الحكم بها بعد التثبت من صلاحية شطر من مؤلفات أديب بذاته ، وهى لهذا السبب غالباً ما تمنح فى خريف حياة الكاتب الأدبية وبعد أن يستكمل نضوجه الأدبى . وتشبه جائزة نوبل فى ذلك اعتراف الشهود على ميت بطيبته وحسن عمله فى الحياة ، ولعل مستر سنكلر لويس Sinclair Lewis أحد الشواذ الذين يثبتون صحة هذه القاعدة ، فقد أنتج كثيراً بعد ما أحرز جائزة نوبل

أما الجوائز الاخرى التى تقل عن جائزة نوبل شأناً ، وقد ذكرت من قبل ، فهى كثيراً ما كانت متحزبة فى قصدها متأثرة بروح العصر فى اختيارها . ثم إن الضيق المالى الذى شمل العالم فى السنين الأخيرة لم يدع لواحدة من هذه الجوائز أن تصل إلى جزء من أربعين جزءا من جائزة نوبل ، وإن كانت تطبع صاحبها بطابع الجودة وتدمغه بخاتم الذهب الابريز فى نظر القارىء والناشر على السواء . ومن ثم يحرز المؤلف مكانة بعد أن يكون مهملاً الاهمال كله . والحق أن الجائزة أياً كانت تدق الطبول لصاحبها فيتنبه الناس إلى أن لهذا الرجل كتاباً لا يمكن التغاضى عن قراءته . وهذا مثلاً هنرى وليمصن Henry Williamson لم يكن معروفا إلا لنفر قليل ، فما هو إلا أن منح جائزة هوثورن من أجل كتابه « تاركا ، كلبة الصيد » Tàrka the Otter حتى تهافت الناس على قراءة كتابه وذاع اسمه فى كل محيط . وعند ما قضى المحكمون بمنح جائزة جونكور لأندريه مارلو André Malraux لكتابه حظ شخص Man's Fate لفتوا العالم الى واحد من أدباء الشباب فى فرنسا الذين يعملون ويجاهدون للمثل العليا . وكانت جوزفينا جونصن Josephine Johnson قد باعت من كتابها « الآن فى نوفمبر » Now in November مدى أحد عشر شهراً من بدء ظهوره ١٠ آلاف نسخة . وما إن منحت جائزة بولتزر من أجله حتى وصلها بين عشية وضحاها ٩ آلاف طلب ممن يريدون الاستمتاع بهذا الكتاب . وخلاصة القول إن هذه الجوائز القومية تحرض الناس على القراءة وتدفع الأدباء إلى تحسين الانتاج

ثم هنالك معركة حامية أبدا مستعرة دائماً فى الخفاء بين الكتب ، وليس لدى الذين لم يندمجوا بعد فى تجارة الكتب أى فكرة عنها ، فالتنافس بين المؤلفين بلغ شدته القصوى ، وهو فى هذه الشدة قاس عظيم القسوة صلف قوى ، وليس للتسامح أو اللين أو الهوادة اليه سبيل ؛ ولعل هذه الحرب اليوم أشد استعاراً مما كانت عليه فى سابق الأيام

ومهما تكن الحال فستبقى الديموقراطية عرجاء حتى يكون من واجبات الدولة تمرين الجماهير على كيفية القراءة المنتجة . وأول الخطوات فى ذلك أن تبين للناس أحسن وأثمن وأنفع الكتب ، ولكن إلى أن نصل إلى مثل هذا العهد ستبقى أسواق الكتب مملوءة بما يظهره الناشرون فى كل يوم ، أولئك الناشرون المنتشرون فى كل بلاد الشرق والغرب ، وستبقى جمهرة القراء فى حيرة عندما يعمدون إلى انتخاب كتب للقراءة ، ويكفى دليلاً على هذا حال الولايات المتحدة ، فقد أصدر الناشرون فيها برغم كساد سوق الكتب منذ عام ١٩٣٠ قدرا لا يقل عن ٥٠٠٠